شمس الدين موسى

العناصر التراجيدية في شعر نجيب سرور (*)

الشعر ديوان العرب ، والشعراء بحق هم ألسنة العرب ، وليس على الامة في اي مرحلة من المراحل الا الحفاظ على هؤلاء الشعراء ونتاجهم ، خاصة الملتزمين بقضايا الامة المصيرية من الشعراء التقدميين الذين يحملون عبء الحاضر بملماته ، ونكساته وعفونته التي قد تصيب نفوس البعض منهم بالكثير من الجروح والانكسارات التي تظهر في انتاجهم الشعري ، كما تظهر التأثرات المختلفة بالثقافة سواء كانت ثقافة قومية أو ثقافة اجنبية واردة من الشمال المتقدم ـ واقصد بالشمال الثقافة الاوروبية بشكل عام بشقيها الراسمالي والاشتراكي ، وليس الجزء الشمالي الغربي ـ الغني من أوروبا أو اميركا الشمالية . وذلك الشاعر العربي الذي وصفناه يعتبر أحد معالم حياتنا القومية سواء في جنوحه أو اعتداله أو في تطرفه. وان كل ما يصيب هؤلاء انما هو وصمة في جبيننا حتى لو أدى ذلك الى وقوعه في العديد من المآخذ التي يمكن أن يؤاخذ عليها من الذوق العام ، أو فيما تعارفت عليه الاخلاق السائدة . واني أتساءل ـ من منا بلا نزوة ، أو من منا بلا خطيئة ؟ ـ وربما توقع هذه النزوة أو الخطيئة الفنانين والشعراء والكتاب في الكثير من المزالق التي تجعل الشاعر أو الكاتب يتقلب بين الافكار المتناقضة والانتماءات المختلفة ، وربما يقع في مزالق تؤدي الى أن تكون اختياراته السياسية غير موفقة ، فيتقلب بين القوى السياسية المختلفة والمتناقضة ، وانني أرى في ذلك رغم تحفظي عليه دليلا عاما على الخصوبة الفنية وصدق الموهبة ، والاصالة الفنية لدى بعض الشعراء المجيدين ، وأكثر الامثلة على هذا الشاعر العربي الراحل بدر شاكر السياب ، وقديما كان يمثل هذه الحالة الشاعر الكبير أبو العلاء المعري الذي تقلب بين جوانب الفلسفة فيما بين الايمان وحتى الالحاد . والامثلة كثيرة على هذا خاصة لو نظرنا للقضية وفق رؤى السياسة بعواملها المتغيرة وشديدة التقلب .

والشاعر « نجيب سرور » الذي رحلَ عنا أخيرا ، والذي يأخذ عليه البعض مواقف معينة أخيرة ـ وأنا من هؤلاء البعض ـ لا يمكن استثناؤه من تلك القاعدة التي وصمت عالمنا المتقلب شديد الصخب ، خاصة في الفترة الاخيرة ـ فترة مرضه ومعاناته من العلل الجسدية ، برغم أن نجيب سرور لم يقف موقف المالأة لسلطة معينة مدانة تاريخيا ، ولم يحاب موقفا لاقوميا كما فعل بعض الكتاب الكبار . ويجب عند تناول أعماله الشعرية على وجه الخصوص التجرد من أية عوامل خارجية من أجل الوصول الى تقييم موضوعي لاعماله وأفكاره ، وما وصل اليه وسط هذه الكوكبة الكبيرة من الشعراء العرب ـ المحدثين ـ الذين كتبوا القصيدة الحديثة ورسخوا وجودها عند القراء والمتلقين ـ وحجم انتاجه كميا وكيفيا ، ولعل البعض ينفي عن نجيب سرور صفة الشاعر بحجة انه كتب المسرحيات وبرز لسنوات طويلة كمؤلف مسرحي أو كمخرج أو كناقد لتعدد كتاباته النقدية منذ الخمسينات او لكتاباته النقدية والنثرية الاخيرة هنا وهناك . وربما يكون لهؤلاء الحق في تصنيف نجيب سرور وفق ما يرونه مخرجا أو ممثلا أو ناقدا أو شاعرا، وربما ذلك يعود بالدرجة الاولى الى صفة التعدد التي كان يتصف بها الكاتب والفنان نجيب سرور ، فلقد كان من هؤلاء الفنانين الذين تعددت مواهبهم ، وأجادوا في أشكال التعبير المختلفة . وهذه خصوصية أيضا يمكن أن يحسبها بعض النقاد على الفنان في بعض الاحيان ، ولكنني أرى أن هذه الصفة يمكن أن تكون له ، فتضاف الى رصيده لو كان ذلك الفنان بارعا في احدى المجالات ، والامثلة المعاصرة أيضا عديدة ، ولا يمكن أن ينكر أحد طه حسين أو حسنين هيكل ، أو صلاح عبد الصبور، أو جبرا ابراهيم جبرا ... فكل واحد من هؤلاء جرب الكتابة في الوان متعددة .

وانني أرى في الكاتب نجيب سرور الشاعر الذي بدأ ـ كأي فنان عادي من قاع الريف ـ يتأثر بما يحيط به في القرية من أغان شعبية ومواويل مع ثقافة كلاسيكية قدمها له والده في فترة غنية بالتناقضات والصراعات الوطنية . فلقد تفتح وعي الشاعر على الازمة الاقتصادية العالمية بايقاعها الرهيب على فقراء ريف مصر وفلاحيه ، بينما هو من أسرة تقع على هامش الفقر ، فأحس بكل ما يتألم له الناس من عوامل تضع حياتهم بعيدا عن الشروط الانسانية ـ مما وضع أمام عينيه في البداية علامة استفهام كبيرة شكلت احدى دوائر الوعي الطبقي في

(*) بمناسبة مرور عام على وفاة نجيب سرور ـ راجع رسالة سليمان فياض في باب النشاط الثقافي العربي .

عقله منذ نعومة أظفاره . وربما ذلك هو ما ساعد على تحديد انتماء الشاعر لتلك الطبقات ، فلقد ظل ذلك الانتماء معه حتى مماته فلم يتخل عنه ، بل دائما ما كان ذلك الاختيار المنتمي يتفجر بداخله شعرا وغناء ، كما كان يتفجر حركة وميلا نحو ثقافة معينة ، والنزوع عن ثقافة أخرى . وربما كان ذلك يمثل أحد العوامل التي أوصلت الشاعر الى التمسك بتجربة القصيدة الحديثة التي وجدها تتحمل ما يريد طرحه ـ كغيره ـ من أفكار صاخبة وأسئلة متعددة ظلت تتصارع بداخله ، ولم تستقر على اجابات محددة ، برغم بعد المسافة بين القاهرة وقريته التي تقع وسط الدلتا بالقرب من الاسكندرية ، او بين قريته وموسكو حيث موقعه الجديد أو بودابست أو برلين .... ابان سنوات البعاد عن الوطن . فلقد كانت تلك الصور القديمة دائمة الانبثاق بين سطور قصائده ... منذ مجموعته الشعرية الاولى « التراجيديا الانسانية » التي حوت قصائد كتبها الشاعر فيما بين عام ١٩٥٢ ـ ١٩٥٩ ، وحتى « الرباعيات » التي صدرت في عام ١٩٧٨ مرورا بـ « لزوم ما يلزم » عام ١٩٧٦ ، « وبرتكولات حكماء ريش » عام ١٩٧٧ .

وربما تكون تلك الصور هي التي أشعلت بداخله عناصر التراجيديا الانسانية ، التي تلمسها من سنوات الطفولة .. ويقول في قصيدته « رسالة الى أبي » من ديوان « التراجيديا الانسانية » :

قصتي من بدئها مكتوبة بالسخرية
كنت أمضي ورفاقي في البكور
لقصور البكوات
قبلما ينفض عصفور نعاسه
حسرتي .. كنا بلون الميتين
كالدمى نصطف في أنواء طوبة
كالكلاب الضمر نستجدي النكاسة
بعض سردين بعلبة
وثمالات من اللحم بعظمة
وحبيبات من الرمان حمراء وحلوة
وبقايا من صنوف الطيبات
كيف حال الاصدقاء ؟؟
يا ترى هل يذكرون
عندما كنا صغارا
نملأ الجيب ترابا وحصى ..

واذا كان ذلك العنصر التراجيدي الاساس في حياة الشاعر وطفولته قد تفجر بداخلهعندما كتب هذه القصيدة التي نشرت بمجلة الآداب البيروتية عام ١٩٥٦ تعبيرا عن البؤس والفقر الشديد المترسب في نفس الشاعر منذ سنوات الطفولة ، عندما كانت الازمة تطحن الجميع ـ الا ان ذلك لم يكن ليتغير برغم تغير ظروف الشاعر نفسها ، حيث يقارن نجيب سرور في القصيدة نفسها بين وضعه ووضع الرفاق الذين لم تتجاوز حركتهم جغرافية قريته بحدودها وسط الريف المصري بفقره وبساطته ... مكتشفا العناصر المتناقضة في حياته وحياة قريته . ويقول ...

ها انا أضحوكة تسعى بجوف القاهرة
ورفاقي أصبحوا في قريتي
أجراء بحقول البكوات
يا أبي لو لم تفرقنا الحظوظ الساخرة
في بلاد المضحكات المبكيات
افكنت اليوم أشرى بالقروش ؟
كرفاقي .. في حقول البكوات ؟
ما الذي يصنع منا يا أبي ما لا نريد ؟
كلنا كنا صغارا كالعصافير البريئة
لم أكن أضحوكة تسعى بجوف القاهرة
ورفاقي لم يكونوا أجراء !
أوليست هذه بالسخرية ؟

وربما تكون تلك العناصر التراجيدية المريرة التي اكتشفهاحينذاك منزوية في زاوية من زوايا نفس الشاعر « نجيب سرور » ولم تخرج مما جعله يعبر عنها في «لزوم ما يلزم » ... التي كتبت عام ١٩٧٦ بعد مرور سنوات وسنوات ، أو لعل الشاعر لم ير طوال هذه السنوات ما يغير تلك العناصر أو يزيل أسباب وجودها في واقع القرية التي كان يزورها بين حين وآخر ـ مما جعله يتغنى مفجرا اياها مرة ثانية

وعرفت أن الشمس لم تعبر بقريتنا .. ولا مر القمر
بدروبها من ألف جيل
ولا العيون تبسمت يوما لمولود ، ولا دمعت لانسان
يموت
فالناس من هول الحياة
موتى على قيد الحياة
.....
.....
لا فرق يا اخطاب بينك والمدينة
غير المداخن والمآذن والقلاع الشاهقة
غير الزحام
وضجيج آلاف الطبول
ونذير أجراس الترام
يا سيداتي .. يا أميراتي الحسان
وهنا البغايا كالذباب بغير حصر ،
ومشاتل البوليس ، والمتسولين بكل شبر
وقوافل جوعى تهيم من الرصيف الى الرصيف
حيرى تفتش عن رغيف !!

ولقد كان الشاعر أثناء كتابة قصائد ديوانه الاول « التراجيديا الانسانية » ـ يعيش تجربة الشعر الحديث

عندما كان يافعا في الخمسينات بعد كتابات الشعراء الرواد ، فكان يطغى على الموجة في مصر طابع خاص أدى الى أن يتخذ الشعراء من الحياة بمفرداتها البسيطة مجالا خصبا للتعبير الشعري ، وصولا الى درجة من درجات الفن ، في تعبيره عن الحياة حتى لو اتخذ ذلك وسيلة من التسجيلية المجردة ولكم هوجم الشعراء على هذا الاتجاه الجديد وعلى رأسهم صلاح عبد الصبور وعبد المعطي حجازي اللذان اكثرا من استخدام الكلمات الدارجة التي يستخدمها الناس في الشوارع والترامات والحوانيت مما أعطى القصيدة الحديثة طاقة كبيرة من الحيوية أوصلتها الى الكثير من القراء معبرة عن نوع جديد من الهموم والارهاصات المبشرة بالتفجر الاجتماعي والوطني. وكان الشاعر نجيب سرور ابنا لهذه الموجة التي تأثرت بشعراء عظام ذاع صيتهم وترجمت أعمالهم أمثال ايلوار وأراجون ، وميكوفسكي ، ولوركا ، وبابلو نيرودا في تصديهم للظلم الاجتماعي والاستعمار والفاشية .. فأكثر أيضا من تلك العبارات ربما متأثرا بنداءات النقاد الواقعيين في ذلك الوقت مثل « محمد مندور ولويس عوض ، ومحمود أمين العالم ، وعبد العظيم أنيس » الذين كانوا يحاربون كطلائع تقدمية من أجل أدب اجتماعي وثوري يحمل القضايا الاجتماعية اكليلا على جبينه ، متأثرين في ذلك بالادب الاشتراكي في المرحلة الستالينية وبالاراء الزدانوفية التي كانت شائعة . ونجيب سرور الذي تحدد انتماؤه الفكري والثقافي بدون تناقض مع الاوضاع الطبقية المظلومة ، والتي تفتحت عليها عيناه بقريته ـ كان حتما أن يصاب شعره بتأثيرات هذه المدرسة في تطبيقاتها الفنية مثل غيره من الشعراء والكتاب ، فأكثر من هذه الاستخدامات برغم حسه الدرامي المميز الذي كان يتصاعد من بين قصائده مبشرا بالشعر المسرحي الذي أتى بعد ذلك . وربما يكون السبب في تخلص شعر نجيب سرور من الكثير من الهتافية التي وقع فيها البعض هو الدراما التي كانت تكمن بنفس الشاعر ووجدانه ، مما خفف من تلك التسجيلية الزاعقة ، والتي لم تكن تتعدى قصائد معدودة ـ كان منها القصيدة المسماة « نوجا .. نوجا » ـ وهي من حلوى الاطفال ـ حيث يتمثل فيها حياة الطفل رث الثياب الذي يقوم ببيع تلك الحلوى المعروفة ... ويقول :

نوجا .. نوجا .. أحلى نوجا
في نصف الليل تغنيها
عريانا في برد الليل
أنا مثلك لم أعرف يوما أفراح الطفل
وعرفت الاحزان المرة
ورضعت العلقم من مهدي
لم أعرف طعم الحلوى ..
نوجا .. نوجا .. أحلى نوجا
يا كتكوتي من ثغرك أنت
مثل الورد البري
يا أطهر من أي نبي
يا أحلى من أحلى نوجا
يا كبدي .. أتبيع النوجا ؟

وبذلك نرى أن انتاج نجيب سرور في هذه الفترة كان مواكبا للقصيدة الحديثة في بعديها الفكري والفني وتأثرها بالواقعية الاشتراكية . فالقصيدة الحديثة بدأت ثائرة على حياة القصور والابراج العاجية ، ولم تكن بمعزل عن المشاكل اليومية للناس ، بل ولدت وسط صخب الجموع ، وعبرت عن المدينة النحاسية القاسية ، ولم تتجاهل عناصر التراجيديا الاجتماعية التي تعيش بداخلها الطبقات الفقيرة والمقهورة ، فحملت فوق كاهلها هموم المشكلة الاجتماعية في أبعادها المادية المتعددة ، كما كانت تحمل في بنيتها ذلك الصرح الجديد والمستحدث دون تجاوز الغنائية التي يتصف بها الشعر العربي ، مع اتساعها للارهاصات الدرامية التي وضحت في قصائد عدة لنجيب سرور وصلاح عبد الصبور ـ مما أوجد مساحة كبيرة أمام الشاعر الحديث من أجل الكثير من التعبيرات الجديدة والتركيبات المستحدثة بداخل الايقاع المتحرر من القيود . ولقد وجدنا نجيب سرور يستخدم تلك التعبيرات بكثرة في ديوان التراجيديا الانسانية موسعا بذلك قاموسه التعبيري بكلمات ما كانت تستخدم من قبل مثل « العلقم ، النوجا ، الرغيف ، المتسولين ، البغايا ، الكلاب ، القروش ، العظمة ، الزحام ، الرصيف ... الخ .ولقد كانت تلك المفردات ذاتها هي المفردات الجديدة التي اغتنت بها القصيدة الحديثة اثناء تعبيرها عن المشاكل المعاصرة والحياة الجديدة التي لم يستطع أن يعايشها الشعراء التقليديون لقصورهم عن استيعاب ما طرحه الواقع من رؤى جديدة . وبذلك نجد أن قصيدة نجيب سرور في هذه الفترة كانت نموذجا للقصيدة الملتزمة فنيا وفكريا ـ فلم تسقط في الهتافية التي وقع فيها البعض بفعل موهبة الشاعر ، وأحاسيسه الدرامية المتنامية ، والتي كانت تعبر عن نفسها قبلما يبدأ في دراسة المسرح . ويقول الشاعر في قصيدة « مفرق الطرق » من ديوان « التراجيديا الانسانية » :

كانت بمفرق الدروب بيننا علامة ..
يا حلوتي .. وكنت لا أفك حرف ..
لكنني قرأت بعد جهد
١ ـ يا بخت من يرود سكة السلامة
٢ ـ يا هول سكة الندامة
٣ ـ يا ويح راحل بغير عود .. !!
سمرت مقلتي في النصب
وبت في الصقيع ليلتين لم أنم
والخوف يعقل اللسان والجنان والقدم
« يا أنت .. أين أنت !!

في أي أفق يا ترى في أي شط .. أي كهف
في أي قصر .. أي فردوس .. على أي القمم
في القاب .. أم في القاع ؟.. أم فوق السحاب
أوليس طوف البحار لم يفت عليك

وفي القصيدة السابقة يظهر العنصر الدرامي الذي يتنامى بداخل بنيتها كجزء عضوي في كيانها الفني ، وينبعث ذلك من التوتر الداخلي المتزايد ، ومن تعدد الاصوات مما أوقف الفنان بداخل دائرة من التردد والتساؤل .

الاحساس بالموت لدى الشاعر

ولما كانت المأساة الاجتماعية تمثل أحد عناصر التفجير الفني والفكري بداخل الفنان قبلما يكتشف امكانياته الفنية الكاملة ، ويتحدد حجم موهبته ، والمدى الذي يمكن أن تصل اليه الدراما في شعره . وان ذلك الاحساس بالمأساة والتناقض الاجتماعي كان يتفاعل مع عنصر آخر اعتبره عنصرا كبير الاهمية في التجربة الفنية والحياتية لنجيب سرور ـ مما شكل التراجيديا الخاصة كما كان يعيشها ويحسها ويتوقعها الشاعر . وهذا العنصر كان ملازما لنجيب سرور طوال حياته الفنية وعبر عنه في صور عديدة ، لعله كان حلما يطارده ، وربما كان مبعثه بداخل شعره من الموروث البيئي المصري ... وذلك العنصر كان يشكله الاحساس المتوالد دائما ـ بداخل نفس الشاعر ـ بالموت الذي كان يصل في كثير من الاحيان الى المستوى الوجودي ، لكنه لم يكن الاحساس الفلسفي المجرد الذي يمكن أن يوجد نتيجة تأثيرات الشاعر بفلسفة الوجود والعدم ، بل انه كان نابعا من الاحساس الموروث من العصور القديمة ، الذي يدخل ضمن مركب الشخصية المصرية ، فالموت لدى المصري القديم مقدمة موضوعية للخلود الدائم ؛ بل انه القنطرة التي لا بد يعبر من خلالها الانسان نحو الخلود . ونجيب سرور لم يفسر الموت الذي يحسه ماديا ومعنويا ذلك التفسير الفرعوني ، برغم تصويره المتعدد لشبحه ، فلقد صور الموت من جوانب متعددة ـ ويقول في قصيدة « حفنتا دموع » من ديوان « التراجيديا الانسانية » :

صديقتي ـ وجاءني الاصم ذو النيوب
يضج بالزئير والثبور والوعيد
ليخنق النشيد
ليمضغ الخراف والصغار والطيور
ويسكت الطيور
بكيت للخراف والصغار والزهور

وبرغم هذا الطيف الذي يراه الشاعر كثيرا ـ الموت ـ الا ان ذلك لم يكن يجعله يريد الاستسلام له ؛ خاصة في المرحلة الاولى من حياته ، فالشاعر كان يرى الموت شبحا بشع المنظر ، ولم يكن يتوقف أمامه كثيرا ـ بل كان عليه في كل الاحوال تجاوزه وعدم الاستسلام له مما جعل فكرة الموت تأتي معانقة للحياة بمظاهرها الجميلة ـ ويقول في قصيدة الاشباح مخاطبا الحبيبة :

انني مثل الورى من لحم ودم
أتعين ؟
لا أريد الموت ما زلت صغيرا كالزهور
لا أريد المعزل المسدود .. أني كالطيور
أعشق الخضرة والاضواء والجو الرحيب

فالشاعر يواجه الموت بالحياة كندين متناقضين ، برغم أنه يخاطب حبيبته في موقف يحوي الكثير من الدعابة ، فالحياة هي الوجه الاخر، ولا حياد له بين الحياة والموت ، فلقد اختار الحياة التي يحس مظاهرها لا على نفسه ووجوده فقط ، بل على مختلف الكائنات من حوله مثل الزهور ، والخضرة ، والاضواء ـ ويقول الشاعر متخيلا تلك اللحظة مفضلا الحياة عليها :

وفي القرار من هياكل الموت مزرعة
أمي واخوة شيعتهم مع الصبا .. وأصدقاء
صرخت لا أريد .. لا أريد أن أموت
وأن أدس في التراب جيفة بغير نبض
أو أصير للذباب مأدبة
وأن تقام عند قبري المهدم الخرب
صبارة كأنها ذراع مستجير
فالهول من القبور
والليل والفراغ والسكون للابد

وربما ذلك الاحساس المبكر بالموت ، هو الذي كان يطغى دوما على الشاعر ، ويجعله يطارد الموت طوال لحظات حياته ؛ بالتنقل الدائم من مكان لآخر ، والعب المستمر من الحياة ، فكان يملأ الحياة حياة بلا استسلام لتلك الاحاسيس القديمة والمستمرة التي ترسخت بداخله ابان كان يرى شخصا عزيزا عليه يرقد تحت الثرى بين دوائر الفراغ والعبث . ولما كان الشاعر يحمل في وعيه المنطق العلمي الذي يتجاوز به الميتافيزاقيات السابقة على الوعي العلمي والحضاري للانسان ، لذا فكان يرى أن حياة الانسان لا تتكرر مما جعله دائم المطاردة لذلك الاحساس بالموت ، والانتصار عليه من خلال الحياة . ويقول الشاعر محاورا أبا العلاء المعري في « لزوم ما يلزم » :

ـ قلت في الموت الكثير ..
ـ كنت للموت غريما ..
كيف لا أكره ما يسرق مني ما أحب ؟
ثائر كنت على الموتين : موت في حياة
وحياة بعد موت ..

ويظل ذلك الشبح يتجسد في وعي الشاعر طوال مسيرته الشعرية . وبداخل مسرحياته التي عرضت على خشبة المسرح مثل « ياسين وبهية » ، و « آه يا ليل يا قمر » فلقد مات البطل الوطني ياسين ، وبعد سنوات من موته ، رأت بهية الانسان والرمز أن قلبها بدأ يميل تجاه أمين تجسيدا لاستمرار الحياة ، لكن أمين أيضا مات وأصبحت بهية أرملة للمرة الثانية بعد أن أنجبت من أمين ياسين الصغير ، وهكذا هي الدورة الدوارة في الحياة وكم ولولت بهية في « قولوا لعين الشمس » على ذكرى أمين وياسين . ولا يزول ذلك اللون الاسود حتى الرباعيات التي كتبها أخيرا مقدما اياها لاستاذه « أبي العلاء المعري » كنوع من الحوار الداخلي بين نجيب سرور والمعري الذي عشق الحياة حتى الموت ، وأدرك بأن الموت عدم فكرهه وهرب منه من خلال اعادة خلق اللحظة وترتيبها وفق قوانين الحياة ، قدم الشاعر رباعياته لابي العلاء المعري مؤكدا التزامه المستمر في التعبير عن احساسه بالموت التي طرحت نفسها عليه .. فيقول :

عندما أختار موتي لا أموت
لا يموت المرء الا مقسرا
عندما يختارني موتي أموت
آه من يختار لي أن أجبرا

ثم يخرج الشاعر من تلك النظرة الذاتية للموت التي تراوحت ما بين الرغبة فيه ورفضه ـ الى الوصول بفكرة الموت في احدى رباعياته الى مدلول عام يصل للمستوى العدمي في التفكير الذي ربما يكون باعثه المعاقرة المستمرة للادوية والعقاقير بعد أن تراكمت عليه العلل ، ملخصا بذلك شيئا من الازمة الخاصة في بعدها الاجتماعي والسياسي ، بعد أن كان دائم الصراع مع الموت من خلال الحياة ـ ويقول :

عندما يولد في الشرق القمر
يولد الموت على رأس الوليد
ما الذي يبقى سوى أن ننتحر
وانصبوا الاحبال للطفل الجديد

ولعل الشاعر في احساسه بالموت لم يكن يستعجله بقدر ما كان يحس أنه آت لا محال ، ولسوف يأتيه على غرة ، لذلك كان دائم التذكر له ، ولم يكن في ذلك وجوديا ـ بل انه كان قد تفاعل مع الواقع العام ، فاستغرق نفسه كما وضح في مسرحية ياسين وبهية ، ومسرحية آه يا ليل يا قمر بداخل المسألة الوطنية والقضايا الاجتماعية التي كان يرهص بها ، بل ان نجيب سرور كان في نظرته للفن ينحو نحو اليسار . فالفن هو الحياة ، وهو المجتمع ولا انفصال بينهما . وربما يكون الشاعر لم يصل الى المستوى التبشيري بالرؤى الثورية ، ولم يخرج في رفضه لحد التطرف الكامل مثل غيره من الشعراء . لكنه عرف قيمة الفن والثقافة الانسانية التي تنتصر للبسطاء . وكانت الثقافة هي شاغله الشاغل ونبعه الذي يستقي منه زاده مقدما اياها للفقراء والمنحازين لهم ، ولقد تخطى الشاعر في انتاجه حد الشهادة المجردة الى درجة من درجات الادانة سواء كانت هذه الادانة نابعة من موقف ذاتي أم من موقف موضوعي . فانها كانت دائما موجودة وحادة . وظل الشاعر يحافظ عليها طوال حياته الفنية .

وما يؤخذ على الشاعر أنه نسي في زحمة حياته التغني بالبطولات العظيمة للشعوب الاخرى مثل غيره من الشعراء التقدميين ـ فلم يكتب شعرا في دواوينه الاربعة المنشورة عن النضال البطولي لشعب فيتنام أو كوبا أو اليمن مثلا . وعندما كتب عن الجزائر كتب عن بطولة جميلة بو حيرد في قصيدته « عرس أوراس » . وأشار الى الارض السليبة في رباعياته ، كما تغنى لناظم حكمت وأكد أن أسس البلاء يكمن في الماسونية التي تتخفى في كل الملل . وقد يكون عدم التفات الشاعر لبطولات شعب فيتنام بسبب مرضه ابان فترات النضال الاخيرة ، التي انتصر فيها الفيتناميون على الامبريالية منتزعين بلدهم من أنياب الاستعمار الجديد . وأستطيع أن أؤكد بكل وضوح على الكثير من الرؤى التي وضحت في شعر نجيب سرور الذي لم ينشر وربما لن يتاح نشره لاسباب بعيدة عن الفن والسياسة ، واعتبر ان هذه الرؤى كانت صحيحة ، حيث كان يرى بعين الفنان موطن الداء في الاوضاع الداخلية والتكوين الحضاري للشخصية المصرية، وان جنح في مضمونه العام نحو التشاؤمية والاستسلام المحبط . الا أن ذلك ربما كان يرجع أيضا لحالات الاحباط العام التي تعرض لها الشاعر جسديا ، والتي تمثلت في اشتداد المرض عليه ، وفنيا من ذبول الحركة التي لم تستوعب طاقته كمؤلف مسرحي وكمخرج وممثل .

الجوانب الفنية والجمالية في شعره

تعتبر قصيدة نجيب سرور منذ البداية منتمية للشعر الحديث على أساس المفهوم الذي طرحه الشعراء منذ نهاية الاربعينات واوائل الخمسينات ، على أساس وحدة التفعيلة دون الالتزام بالقافية الكلاسيكية ، مع الخروج على الوزن الواحد بداخل القصيدة ، مما يعطي الفرصة لتنوع المضامين ، مع احتمال القصيدة الحديثة للرؤى الجديدة والجريئة التي فجرها الشعراء الجدد . وبذلك كان الشاعر أحد هؤلاء الشعراء الذين اشتركوا في هذه الخصائص العامة ، كما نلاحظ أن الفترة التي كتب فيها الشاعر قصائد ديوانه « التراجيديا الانسانية » كانت القصيدة لا تخلو من القافية التي كانت تتكرر كل عدة سطور . ويقول :

كانوا قالوا أن الحب يطيل العمر
حقا .. حقا .. ان الحب يطيل العمر
حين نحس كأن العالم باقة زهر
حين نشف كما لو كنا من بللور .

ويعتبر استخدام نجيب سرور للتراث الانساني والتاريخي في مستويات عديدة احدى خصائصه الاساسية ، مثل الاحالة والتضمين اللتين ظلتا قيمة فنية وجمالية لجأ اليها كالاساليب التي أثرت القصيدة الحديثة بالمعاني الانسانية غير المحدودة . ويقول في قصيدة « صرعى الحزن » التي تنتمي للمرحلة الاولى

هذه الاجيال بعدي سوف تفرح
فرح الانسان بالنصر القريب
اذ يعاني .. يتعذب
يتمزق
كبرومثيوس .. مربوطا الى قمة طود

والشاعر في المرحلة الاولى ـ الخمسينات ـ كان لا يتخذ من الاسطورة أو الحدث التاريخي الذي يلجأ اليه قيمة أساسية تدخل في بناء القصيدة ، بل انه كان يكتفي بالاصالة كنوع من التداعي أو التشبيه من أجل التأكيد على المعنى الذي يريد تأكيده . فكان الاستخدام في هذه المرحلة بسيطا وخارجيا ولا يرتبط ببنيةالقصيدة الدرامية وحدثها الاساسي ، وذلك أصبح أكثر تطورا في المرحلة الاخيرة فأصبح أكثر تعقيدا وتركيبا ، حيث أقام نجيب سرور قصيدته على الحدث التاريخي الذي كان يلجأ اليه متخذا منه قناعا أو ستارا أو رمزا يلقي من ورائه رؤاه التي يريد توصيلها . وذلك واضح في قصائد عديدة مثل المسيح واللصوص في ديوان « لزوم ما يلزم » التي يتخذ الشاعر فيها من حادث صلب السيد المسيح حيلة فنية لمخاطبة انسان العصر الذي يتعذب كل يوم ويصلب كل يوم . ويقول :

ـ أبتاه
ـ تصرخ في العراء على الصليب
والاب مشغول بعيدا لا يجيب
عبثا تنادي (لا حياة لمن تنادي)
أنت منذ الان وحدك ، أنت في البلوى يتيم
فايأس .. أبعد الصلب ثمة من رجاء

وهذه سمة أيضا من سمات شعر نجيب سرور ، فلقد عني باستخدام التراث بالاحساسية ، فمن الاساطير الاغريقية الى التراث المسيحي والاسلامي ، جميعه كان يمثل زادا أمام الشاعر الذي وعى خطوات تطوره بعد أن توقف حوالي عشر سنوات عن الشعر ، الا انه عندما عاد كان يخطو خطوات سريعة نحو استيعاب الحساسيات الجديدة في الشعر الحديث ، والتي ظهرت في أشعار كثير من الشعراء في السنوات الاخيرة ، والتي تمزج بين الصوفية والرؤى شديدة الكثافة التي تتشابك مع بنائية القصيدة التي تتخذ من التراكيب اللغوية ومن تطويعها لحدس الشاعر وانفعاله قوة تعبيرية معانقة لتلك المشاعر المتداخلة والمتوثبة بداخله ، وكانت محاولات نجيب سرور في الوصول الى هذا غير كاملة ، وتضمنها ديوانه الثالث « برتكولات حكماء ريش » في قصائده تحت عنوان « أفكار جنونية من دفتر هملت » لكنه كان غير جاد في مسألة التجريب ومواصلة تطوير قصيدته نحو بنائية جديدة وفق تشكيل يتخذ من العمل الفني نوعا من الصياغة الاستطيقية لموقف فنان متميز من واقع متميز ، والدلالة التي يطرحها العمل هي هذا الموقف ـ باعتبار ان اللغة تمثل بعدا واقعيا وموضوعيا ، وأي عملية تشكيلية كان يقوم بها الشاعر في اللغة انما هي اعادة تشكيله لعلاقات اللغة التي تعكسه ، باعتبار ان اللغة تمثل الطرف المقابل للذات .

لكنه كان شاعرا ـ على مستوى الانتاج المنشور ـ يعيش عصره ومجتمعه ، بقضاياه المتعددة ، وربما يكون غياب الحركة المسرحية هو السبب الاساس في عودته للشعر ، ولا عجب في هذا فالشعر منذ البداية هو الاب الشرعي للمسرح ، وكان نجيب سرور مخلصا لابيه في بداية الطريق ، وعندما راودته أضواء المسرح بدأ حالة العصيان تاركا الاب ـ الشعر ـ وعندما بدأت حالات الغياب الطويلة للحركة المسرحية الجادة ـ كان على نجيب سرور أن يبحث عن أبيه ، وكانت عودته للشعر الذي قدم عن طريقه دواوينه الثلاثة الاخيرة في سنتين متتاليتين ـ قبلما يتوقف قلب الشاعر عن النبض والبوح بسره عن القرية والموت والفقراء .. الذين طالما أحبهم الشاعر وشكل من الاحساس بهم والصراع معهم تراجيدياته الانسانية .

القاهرة